كتاب الشباب

فلوس العيد - كنز بروكسيل



مجموعة قصص

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

قصتان :

- فلُوسُ العِيدِ
- كنز بروكسيل

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبدالسلام

فلوس العيد، كنز بروكسل - الرياض

٤٩ ص، ١٤X٢١سم

ردمك: ٥-٠٨-٤٠-٩٩٦٠

١- القصص القصيرة العربية - السعودية أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠١٩٥٣١ ٢٢/١٨٢٦

رقم الإيداع: ٢٢/١٨٢٦ ردمك: ٥-٠٨-٤٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



فلُوسُ العِيدِ

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

دَخَلَتْ ربيعَةُ عَلَى طفلَتِها الصَّغيرةِ مَرْيَمَ فشَهقَتْ، وضَرَبَتْ علَى صَدْرِها:

- وَيْلي! وَيْلي! مَاذَا تَفْعَلينَ؟

وَرَفَعَتْ مَريمُ التي كَانَتْ لا تَتَجَاوزُ سِنَّ الرَّابعَةِ، رَأْسَهَا لتَنْظُرَ إِلَى أُمِّهَا بعَيْنَيْهَا الوَاسعَتَين البَريئتَين متوقِّعَةً، شَرًّا.

وَانْحَنَت الأمُّ تَلْتَقطُ الأوراقَ المَاليةَ الخَضْراءَ المُبعْثَرَةَ على الأرضِ، والمَائدَة، وتُلْقي بالأسْئلَةِ الغَاضبَة:

- كَيْفَ عَثَرتِ علَى المفْتَاحِ! وكَيفَ فتَحْتِ صُنْدُوقَ أبيك؟ سَيَقْتلُنا أبُوك ضربًا إِذَا ضَاعَتْ ورقَةٌ واحدَةٌ!

ولَم تَزدْ مَريمُ عَلَى أنْ أخْرجَتْ لسَانَها ودَلَّتْه بشدَّةٍ نحوَ ذقنها غيرَ دَاريَةٍ ماذَا سيَكونُ عِقَابُهَا.

وعَدَّت الأمُّ الأوراقَ فَوجدتْهَا خَمسةً، وتَنهَّدتْ مُرتَاحةً لعدَمِ ضَياعِ إحْدَاهَا. وبَعْدَ أنْ رَتَّبتْها في رِزْمةٍ واحدةٍ نَظَرت إِلَيْها بإِمْعانٍ لتَصيحَ في مَريمَ مرةً أخْرى:

- مَاذَا فَعلْتِ بفُلوسِ أبيك!؟

وخَبَّأتْ مَريمُ القَلَمَ الأحمرَ الذي كانتْ قَد عَثَرتْ علَيْه وسَطَ حديقةِ الجيرَان.

وتَصَفَّحَتْ أُمُّها الأوراقَ واحدَةً واحدَةً فإذَا عَلَيْها جَميعاً رُسُومُ دَوائرَ ومُرَبَّعات بِقَلَمٍ أحْمَرَ.

- وَيلي! ويْلي! سَيَقْتُلُنا أبوك حينَ يرَى ما صَنَعْت!

وانحَنَتْ عَلَيهَا فأمْسكَتْ بيدِها الصَّغيرة، وَنَزَعت منْها القَلَم الأحْمرَ وضَربتها عَلَيْهَا عِدَّة مَرَّاتٍ:

- لِمَاذَا فَتحتِ الصُّندوقَ؟ آه لِمَاذَا كَتَبْتِ علَى فُلوسِ أبيك؟ آه ألاَ يمكنُ أنْ أغيبَ رَمشَةَ عَيْنٍ دُون أنْ تَعْمَلي مُصيبَةً!؟ آه!؟

وصَاحتِ الطفلةُ الصَّغيرةُ من الفَزعِ أكْثرَ من التَّألُّمِ للضَّرْبِ:

- لَنْ أعُود! لَنْ أعُودَ مرةً أخْرَى!

وأعادتْ الأمُّ الأوراقَ الخَمْسَةَ إلَى غِلافِها ووَضَعَتْهَا دَاخلَ الصُّنْدُوقِ وأقْفَلَتْه، وعَلَّقتِ المفتاحَ في عُنقِها.

* * *

كانَ مُباركٌ زَوجُ رَبيعة يعْمَلُ حَارسًا لِموقفِ سيارَاتٍ بأحَدِ الشَّوارعِ التِّجاريَّةِ المُزْدَحمةِ بالمَدينَة. وكَان مقْطُوعَ الرِّجْلِ اليُسْرَى، فكَانَ أصحابُ السَّيَّاراتِ يعطِفُونَ علَيه ويُضَاعِفُونَ

لَه أُجْرَةَ الحراسَةِ علَى سَبيلِ الصَّدَقَةِ. وكَانَ يَعيشُ مَعَ زَوْجَتِه رَبيعَةَ وطفْلَتِهما الصَّغيرةِ مَرْيَمَ في غُرفةٍ واحدةٍ منْ دارٍ كَبيرةٍ معَ الجيرانِ بأحدِ الدَّواويرِ المُحيطةِ بالمَدينةِ.

وكَانَ يحْرِصُ علَى تَوفيرِ درهَمٍ واحدٍ علَى الأقَلِّ كُلَّ يَوْمٍ، يَضَعُه في الصُّنْدُوقِ الخَشَبيِّ المُغَطَّى «بهَيْدُورَةٍ»[1] في أحَدِ أركَانِ الغُرفةِ. وَحينَ تَجْتَمعُ لَهُ عشَرَةُ دَرَاهمٍ يَسْتَبْدِلُها عندَ البَقَّالِ بورَقَةٍ ويضَعُها في غلافٍ في قَعرِ الصُّنْدُوق.

وكَانَتْ مريمُ الصَّغيرةُ تَرَى وَالدَها يفْتَحُ الصُّنْدُوقَ كُلَّ يومٍ ويضَعُ فيه الدِّرهَمَ فَتُسْرِعُ لتُطِلَّ بداَخله فيُقْفلُه بسُرعةٍ ويأْخُذُ المفتَاحَ، ممَّا يُهَيِّجُ فُضُولَهَا الصِّبيانيَّ الكَبيرَ إلَى مَعْرِفَة مَا بداَخلِ الصُّنْدُوقِ الغَامضِ...

وانطَبَعَتْ في ذَاكرَتِها الصَّغيرةِ صُورةُ أبيهَا وأمِّهَا وهُمَا يَفْتَحانِ الصُّنْدُوقَ ذَاتَ ليلَةٍ عَلَى ضَوءِ شَمْعَةٍ، وَهي نصفُ نَائمةٍ تنْظُرُ إليْهما دُونَ أنْ تَستَطيعَ القيامَ لمُشَاركَتِهمَا الإطْلاَلَ دَاخلَ الصُّنْدُوقِ العَجيبِ. وَرَأت أبَاهَا مُباركاً يُخْرِجُ الغلاَفَ

(١) الهيدورة: فروة الكبش.

فَيفْتَحُه ويضَعُ فيه خَمسَةَ أوْرَاقٍ خَضْرَاءَ من فئةِ الخَمسينَ درْهَمًا. ورأتْ أمَّها رَبيعَةَ تُقبِّلُه سَعيدةً وتقُولُ:

- الحَمدُ للَّه. ضَمِنَّا كبشَ العيدِ!

فَرَدَّ عليهَا وهوَ لاَ يكَادُ يُخفي سَعادتَهُ:

- الكَبشُ وحْدَهُ لاَيَكْفي. فهُناكَ الدَّقيقُ والزَّيتُ والسُّكَّرُ... هَذَا إِذَا لمْ يرْتفعْ ثَمنُ الكِباشِ.

- لَنْ يكونَ إلاَّ الخَيرُ، إنْ شَاءَ اللَّهُ.

واقْتَرَبَ يَومُ العيد، وبدَأت كباشُ الجيرانِ تَظْهَرُ دَاخلَ حَوشِ الدَّارِ مَربوطَةً إِلَى أبوابِ غُرفِ الجيرانِ وأمَامَها أطبَاقُ العَلَفِ، والأطْفالُ يتَفرَّجُون عَلَيْها.

ولَمْ تَكُنْ مريَمُ تُخْفي غَيرَتَها من أطْفَالِ الجيرانِ، وتَدْخُل كُلَّ لَحْظَةٍ لِتَسألَ أمَّهَا:

- مَتَى سَيكُون لَنَا نَحْنُ كَبْشٌ مِثْلَهُم؟

فَتُطَوِّقَها أمُّها وتُقبِّلُها وتَقُولُ:

- قَريباً يَا عَزيزَتي...

وأفَاقَ مُباركُ صَبَاح يومِ أحدٍ، فَأيقَظَ زَوجَتَهُ:

- قُومي . . . سَنَذْهَبُ اليومَ إِلَى السُّوقِ لشراءِ الكَبشِ.

* * *

كَانَ اليَومُ يومَ أحدٍ، والعَمَلُ بموقفِ السيَّاراتِ مُتوقِّفٌ. فأفطَروا وأخْرجُوا مَعَهُمْ طِفْلَتهُم مَريَمَ، وذَهَبَ الثَّلاثةُ إِلَى السُّوقِ، ومُباركٌ يَضَعُ غِلاَفُ الفلُوسِ في جَيْبِ صَدْرِه، ويُقْفِلُ علَيْهَا بِزرٍّ السُّتْرةِ العَسكَريةِ النُّحاسِيٍّ. ورَبيعةُ تَلْتَفِتُ إِلَيْه كُلَّ لَحْظَة لتقُول:

- رُدَّ بَالك! اللصوص في السُّوقِ كثيرُونَ هَذهِ الأيامَ.

- لاَ تَخَافي يَا امْرَأَةُ!

ويضَعُ يَدَهُ علَى صَدْرِه ليتأكَّدَ مِن وُجُودِها هُنَاك.

وعلَى بَابِ السُّوقِ اجْتَمَعَ عليه عَدَدٌ منَ الغلْمَانِ يَلْوُون الحِبالَ علَى سَواعدِهم يسْأَلُونَه:

- هَلْ نُعاونُك عَلَى جَرِّ الكَبشِ للدَّارِ؟

فَكَانَ يَرُدُّ بابْتسَامَةٍ أَبَويَّةٍ:

- حَتَّى يُكَتبه اللَّهُ. لَم نَقُلْ باسْمِ اللَّه بَعْدُ . . .

وحينَ تَكَاثَرُوا عَلَيهِ جَاءَ شابٌّ يَلْبَسُ قَلَنْسُوةَ صوفٍ زَرقاءَ

يَخْـرُجُ شَعَرُه من تَحتِها في كُلِّ اتِّجاهٍ، فَتَدخَّلَ ليُنقِذَه من الغلمانِ، قَائلاً:

- اذْهَبوا! اتركُوا الرَّجلَ وشَأنَه! ألا تَروْنَ أنَّهُ مَعْذُورٌ!؟

مُشيراً بذَلكَ إلَى عَرَجِه، ودَفَعَ الغلْمانَ فَتَزاحَمُوا حَولَه حتَّى كَادُوا يُوقِعُونَه علَى الأرضِ لَولاَ أنْ وَقَفَتْ زَوجَتُه رَبيعَةُ خَلْفَه لتُسندَهُ.

وَحينَ تَفرَّقَ الغلمانُ بنَفْسِ السُّرعةِ التي اجْتَمَعُوا بهَا، وضَعَ مُبارَكُ يدَه علَى جَيْبِه فانْسَحبَ الدَّمُ من عُروقِه دفْعَةً واحدةً فَكادَ يقَعُ مُغْمىً عَلَيْه...

ورَأتْ زَوْجَتُه شُحوبَ وَجْهِهِ فأدْرَكَتْ بالسَّليقَةِ مَاحَدَثَ:

- مُباركٌ! مَالَكَ؟ هَل سُرِقتْ منْكَ الفُلُوسُ؟

فحَرَّكَ رأسَه بالإيجابِ غَيرَ قَادرٍ عَلَى الكَلامِ. فَأخَذَتْ هي تَصرُخُ وتُولْولُ وتَلْطِمُ خَدَّيْهَا، وَالطِّفلَةُ الصَّغيرةُ مَريمُ تَنْظُرُ إلَيها وَإلى أبيهَا المُمْتَقَعِ الوَجْهِ وَتَبكي في ذُعْرٍ شَديدٍ...

واجْتَمَعَ عَلَيْهِمُ النَّاسُ يَسألُونَهُم عَمَّا حَدَثَ، وَيَطلُبُون من مُبَارَكٍ أنْ يَتَأكَّدَ أينَ وضَعَ فُلُوسَهُ ولَكنَّ الشِّقَّ الحَديثَ في

أسْفلِ جَيبه منْ فعْلِ مُوسَى حلاَقةٍ حَادٌّ لَمْ يتْركِ المَجَالَ للشَّكِّ...

* * *

وشَقَّ أحدُ رجالِ الأمنِ طَريقَه إِلَى دَاخلِ الحَلقةِ ليطَّلعَ علَى مَا حَدَثَ. وشَرحَتْ لَه رَبيعَةُ الوَضْعَ فَحَركَ رأسَهُ نَاعيًا علَى النَّاسِ غَبَاءَهُم وقلَّةَ احْتراسِهم علَى أموالِهم في مثْلِ هَذه الأيامِ. وقَادَهُمَا إِلَى قسْمِ الشُّرطةِ حيثُ أدْخلَهُم علَى ضَابطٍ شَابٍّ، رَفَعَ لَهُ التَّحيَّة وَقَالَ باقْتضَابٍ:

– سرقَةٌ أخْرى...

وَنَظَرَ الضَّابطُ إِليْهما، والمرأةُ تَحْملُ الطِّفلَةَ البَاكيةَ وتُحرِّكُها آليًا لإِسكاتِهَا، وحَرَّكَ هُو الآخرُ رَأْسَهُ:

– مَاذَا سَنَفْعلُ مَعكُمْ!؟ لماذَا لاتُساعدُونَنَا قَليلاً بشَيءٍ من الحَذَرِ!؟ كيفَ سَنَعْثُر عَلَى فلُوسِكُمْ؟

وأمَرَ الشُّرْطيَّ أنْ يأخذَهُمَا إِلَى أحَدِ الكَتَبةِ ليكْتُبَ تَقريراً بذَلك. ودَخَلَ مُباركٌ إِلَى المكْتبِ وجَلَسَ أمَامَ الكَاتبِ فأخَذَ هذَا يُلْقي علَيهِ الأسئلةَ ويكْتُبُ إجَابَاته علَى الآلةِ.

وجَلَستْ رَبيعةُ علَى كُرسيٍّ خشبيٍّ في المدْخَلِ، ومرْيمُ الصَّغيرةُ تبكي في حِجْرِهَا، وهيَ تنْتَهرُها:

- اسْكُتي! يَا طَالِعَ الشُّومِ! لولاَ أنَّكِ زَوَّقْتِ الفُلُوسَ بقَلَمِكِ لَمَا ضَاعَتْ!

وتَدخَّلَ الشُّرطيُّ الكَبيرُ السِّنِّ القَاعدُ إِلَى طَاولَةٍ علَى بابِ القسْمِ:

- لاَ تلُومي الطِّفلَةَ البَريئَةَ علَى أغلاَطِكُمْ! إنَّها لاَ تَعْرِفُ شيئاً...

- مَنْ يَدْري يا سيِّدي من أيْن يأتي سُوءُ الطَّالع!؟ لمَاذَا لَم تُسرَق الفُلُوسُ من قَبْلُ، ولم تَضعْ حتَّى زَوقَتْها كُلَّها بقَلَمِها الأحْمَر!؟

وكانَ الضَّابطُ الشَّابُّ يكْتُبُ في مَكْتبِه، ويسْتمِعُ إِلَى حديثِ الشُّرطيِّ معَ ربيعةَ فجَذَبَ كلاَمُها انتباهَهُ، فَتوَقَّفَ عن الكتابةِ، وضَغَطَ الجَرسَ بقَدَمه.

وقَام الشُّرطيُّ البَوابُ وأطَلَّ علَيهِ فقَال لَهُ:

- جِئ بالمَرْأةِ.

فَعَادَ الشُّرطي إِلَى رَبيعَةَ وأشَارَ لَها أنْ تَتْبعَه إِلىَ مَكْتَبِ رَئيسِ القسْمِ. فَوَقَفَتْ مُعْتذِرةً عنْ بُكَاءِ الطِّفلةِ لِمَن حَولَها وَللشُّرطي، ودَخَلَتْ علَى الضَّابطِ الشَّابِّ، فسألَها:

- قُلْتِ إِن طفلَتَكِ هَذه كَتبتْ علَى الفُلُوسِ.

فارتَبكَتْ رَبيعَةُ قَليلاً لأنَّها كَانتْ سَمِعَتْ أنَّ الكتابَة علَى الفُلوسِ مُخَالفَةٌ للْقانُونِ فَقَالَتْ معْتذِرةً:

- إِنَّها طفْلَةٌ صغيرةٌ لاتَعْرِفُ شَيئًا. وَقَدْ وجَدَتْ قَلَمًا -

فَقَاطَعَهَا الضَّابطُ:

- بأَيِّ لَوْنٍ؟

- أحْمَرُ.

فَقالَ لَها وهُو يُخْرِجُ من دُرْجِه قلَمًا أحْمَرَ:

- مثلَ هَذَا؟

- نَعَمْ.

فَمَدَّه إِلَى الصَّبيةِ قَائلاً:

- خُذِي.. مَا اسْمُكِ؟

- اسمُها مَرْيَمُ، يا سَيِّدي.

- ضَعِيهَا علَى الأرضِ. خُذِي القَلَمَ.

وتَنَاولَتْ مَرْيَمُ القَلَمَ بعْدَ تردُّدٍ. وأخْرَجَ الضَّابطُ محْفَظَتَهُ وأخْرَجَ منْهَا خَمْسينَ درْهَمًا فَنَاوَلَهَا الطِّفلَةَ أمَامَ استغرابِ أُمِّها والشُّرطيِّ المُسنِّ.

- خُذِي يا بنتي، اكتُبي علَى هذِهِ.

فحَاولَتْ الأُمُّ منْعَ مريمَ من أخذِ الورقةِ المَاليَةِ، إلاَّ أنَّ الضَّابطَ قالَ بحَزْمٍ:

- دَعيهَا! دَعيهَا تكْتُبُ عليْها ما كَتبتْهُ علَى الأوراقِ المَسْرُوقَةِ. أجلِسيهَا علَى ذَلك الكُرسِي إلَى تلْك الطَّاولَةِ.

وَجَلَسَت الأمُّ والطِّفلَةُ إلَى الطَّاولَةِ ومَريَمُ تمسكُ بالقَلَمِ وتَنْظُرُ حَوَالَيْها إلَى الضَّابطِ الذي عَادَ إلَى أوراقِه وإلَى الشُّرطي الذي صَرفَه الضَّابطُ فَولَّى ظَهْرَهُ خَارِجًا.

وبَعْدَ عِدَّةِ دَقَائقَ كَانَتْ رَبيعَةُ تُشَجِّعُ مَرْيَم أثناءَها علَى الكتَابَةِ، وتُمسِكُ بيَدها، وتَضَعُ رَأسَ القَلَمِ علَى الوَرقَةِ المَاليَّة، قَبلَت مَريَمُ أنْ تبدأَ في التَّخطيطِ والتَّزويقِ.

وَوَقَف الضَّابطُ حينَ سَلَّمَتهُ رَبيعَةُ الوَرقَة، فَنَظَرَ إلَيْهَا وسَأَلَ:

– هَذه هي نَفْسُ الرُّسُومِ التي وُضِعَتْ علَى الأوراقِ المَسْرُوقَة؟

فَحَركَتْ رَبيعَةُ رأسَهَا:

– تَقْريبًا.

فَصَرفَها برأسِهِ:

– اذْهَبي الآنَ. سنَرى مَا يمكِنُ عملُه. وَدَعي الطفلَةَ وشَأنَهَا.

ورَبَّتَ خدَّ مَرْيَمَ التي ابتَسَمَتْ لَهُ والْتَصَقَتْ بسَاقِ أمِّها.

وخَرَجَ مبَاركٌ من مكْتبِ الشَّكاوَى وغَادَرَ الثَّلاَثةُ قسمَ الشُّرطةِ في حَالٍ منَ النَّكَدِ والقَهرِ متَوجِّهَيْنِ نَحْوَ مَسكَنِهمْ.

ولَم تكَد رَبيعَةُ تَدخُلُ الغُرفَةَ حتَّى ارتَمتْ علَى سَريرِها بَاكيةً وزَوجُهَا ينظُرُ إلَيْها وإلَى مَريَمَ التي لَمْ تكُن تَدْرِي مَا يحْدُثُ.

* * *

كَانَ ضَابطُ الشُّرطَة رجُلاً نَبيلاً، طَيِّبَ القَلْب، ذَكيًا. فَبِمُجَرَّد مَا غَادَرَ مُبَارَكٌ وعَائلَتُه القسْمَ أرسَلَ في طَلَبِ أربَعَةٍ

من رجَـاله، فَـأخْـبَـرَهُـم، وعَـرَضَ عَلَيْـهـم الورَقَـةَ المَاليـةَ، وطَلَبَ منْهُم الوُقُوفَ عَلَى أبْوابِ السوقِ الأرْبَعَةِ والقَبْضَ عَلَى كُلٍّ مَن يْدخُلُ أو يخرجُ منَ المشْبُوهين وأصْحَابِ السَّوابقِ، فأسْرَعوا إِلَى تَنفيذِ الأمرِ.

وأرْسَلَ في طَلَبِ أربعةٍ منْ رجَال الشُّرطةِ فأرسَلَهُم لتَطْويقِ سُورِ السُّوقِ والقَبضِ عَلَى جَميعِ مَنْ يُحَاولُ القَفْزَ فَوقَهُ.

ولَم تَمض سَاعـةٌ حـتَّى بَدَأتْ الأفْـوَاجُ الأولَى منْ لُصُـوصِ السوق والمتَسَكِّعينَ تَصلُ إِلَى القسمِ، فيدْخُلُ كُلٌّ واحدٍ منْهُمْ علَى حدَةَ إِلَى غُرفَةِ التَّحقيقِ حَيثُ يؤْمَرُ بإفْراغِ جُيُوبِه، ويُسْألُ عـمَّـا إِذَا كَـانَ يعْـرفُ مَنْ سـرقَ المائَتَيْن والخَـمـسين دِرهَـمًـا منَ الرَّجُلِ الأعَرجِ، فَكَانُوا كُلُّهُـم ينْكرونَ معْرِفةَ الفَاعلِ، فيرسَلُون إِلَى غُـرفةِ الحَجْزِ التي كَانَتْ عبارةً عَن دهْليزٍ مُظْلمٍ رَطبٍ بَاردٍ تَحْتَ الأرضِ، فيُتركُون هُنَاكَ.

وَفي نهايَةِ النَّهَارِ حينَ فَرَغَتِ السوقُ، دَخَلَ عَلَيْهم الضَّابطُ الشَّابُّ، فَأشْعَلَ مصْباحًا عَاريًا مُعَلَّقًا في سَقْفِ الدِّهليزِ ووجَّهَ إِليْهم الكَلاَمَ:

ـ سنْعطيكُم فُرصةَ الخُروجِ من هُنَا مَرَّةً أخرَى، وذَلكَ بِسؤالِكُم واحداً واحداً عَن سارقِ فلُوسِ الرَّجلِ الأعْرجِ. فإِذَا لم نتوَصَّلْ إلَى معْرفَتهِ فستَقْضُون جَميعًا عيدكُم هُنَا.

وأشَارَ إلَى مُساعديه فَبدَؤوا يُخرجُون المَقْبُوضَ عَلَيْهم واحداً واحداً ويأخُذُونَهُم لغُرفةِ التَّحقيقِ؛ حَتَّى جَاءَ دَوْرُ غلامٍ صَغيرٍ أخَذَ يْرتعِشُ من الخَوفِ فَعَرضَ الضَّابطُ عَلَيه الوَرَقةَ المَاليةَ وسألهُ:

ـ هَل رأيتَ وَرَقةً مثْلَ هَذه؟

فَحملقَ الغُلاَمُ فيهَا، وأضَافَ الضَّابط:

ـ أُنْظُرْ جَيِّداً. وَرَقةً منْ فئةِ الخَمسةِ آلافِ سَنْتيمٍ عَلَيْهَا رسُومٌ بقَلَمٍ أحْمَرَ.

فأمْسَكَ الغُلاَمُ بهَا بيدٍ مرْتَعشَةٍ وقَالَ:

ـ نَعَمْ.

ـ عنْدَ مَنْ؟

ـ أخَافُ إنْ دَلَلْتُكُمْ علَيه أن ينْتقِمَ منِّي بعْدَ خُرُوجِه من الحَبْسِ.

فَوَضَعَ الضَّابطُ يدَه علَى كَتِفِه وقَالَ مُطَمْئِنًا:

– لاَ تَخَفْ من هَذهِ النَّاحيةِ! سَوفَ نُعيدُكَ إِلَى الدِّهليزِ كَما لَو أنَّك رَفَضْتَ التَّصْريحَ لَنا باسْمِه. وسَنُخْرِجُكُم جَميعًا حَتَّى لاَ يَعْرِفَ أحَدٌ مَنْ أخْبَرَنَا.

فَقالَ الغُلامُ:

– إِنَّهُ مَرْزُوقُ.

فَسألَ الضَّابط:

– مَرْزُوقُ مَنْ؟

فَرَدَّ الغُلاَمُ: لاَ أدْري. الجَميعُ ينَاديه مَرزُوق، ويُكنِّيهِ البَعْضُ بالمَلْعُوقِ أوْ وُلْدِ السُّوقِ.

فَردَّ الضَّابطُ:

– مَرْزُوقُ المَلْعُوقُ. مَرْزُوقٌ وَلَدُ السُّوقِ.

فَحَنَى الغُلاَمُ رأسَه:

– نَعَمْ. ولكن أرجُوكُم أن تَستُروني! فهُو شرِّيرٌ وعنيفٌ، خُصُوصًا حينَ يشْرَبُ.

– أينَ يذْهَبُ ليَشْرَبَ؟

- إلىَ الغَابةِ علَى شاطئِ البحْرِ.

- من أينَ يشْترِي الشَّرابَ؟

- من دُكَّانٍ قريب من هُنا.

- وأرسَلَ الضَّابطُ أحدَ رجالِه إلى الدُّكَّانِ فَعَادَ هَذا بَعْدَ رُبع سَاعةٍ بورقةٍ من فئةِ الخَمْسين درهَمًا وعَلَيْهَا رسُومُ دَوائرَ ومُربَّعاتٍ بقَلمٍ أحْمَرَ. فتَناوَلَ الضابطُ الورَقَةَ وقَلَّبَها بيْنَ يَدَيْه، وسَألَ الرَّجُلَ:

- ماذَا اشْتَرَى بها؟

- زُجَاجَتَيْ شَرابٍ، وأخَذَ بقيَّةَ الفُلوسِ.

وهُنَا طَلَبَ الضَّابطُ من أرْبَعَة من رجَالِه التَّوجُّهَ إلَى الغَابةِ عَلى الشَّاطئ، دُونَ إحْدَاثِ ضَجَّةٍ، والقَبضَ عَلَى جَميعِ مَن يعْثُرون علَيهم هنَاكَ من السُّكارَى أو المتَسكِّعينَ.

* * *

وبَاتَ مُبارَكٌ وزَوجَتُه ربيعَةُ لَيلَةً بَيْضَاءَ يقَلِّبان أمرَ محْنَتِهما عَلَى جَميعِ وُجُوهِه لَعَلَّهُما يَجدَان لَه حَلاًّ. وكَان ممَّا يزيدُ في حَسرتِهما رُغَاءُ الكِباشِ وسَطَ الدَّارِ، وبقَاءُ يومٍ واحد

فَقَط علَى العيدِ، الأمرُ الذي يسْتَحيلُ مَعَه تَدْبيرُ المال بأيَّةِ طَريقةٍ.

وأصْبَحَ الصَّبَاحُ، وخَرَجَ مُبارَك لعَمَلِه، وذَهَبَتْ رَبيعَةُ إِلَى مَنْزلِ أحَدِ التَّجَّارِ بالمَدينَةِ كَانَتْ تَعْمَلُ عنْدَه خَادمًا قَبلَ زَواجِها، لَعَلَّهَا تُلِيِّنُ قَلْبَه فيُقْرِضَها ثَمَنَ الكَبش. وتَركتْ طفْلَتها مَرْيَم مَعَ جَارةٍ صَديقةٍ لَها.

وعَادَتْ في المَسَاءِ جَائعَةً مُرهَقَةً يائسَةً خَائبة الأملِ. وعلَى بَابِ الدَّار وَجَدَت زَوْجَهَا وقَدْ عَادَ، هُوَ الآخَرُ، من عَمَلِه مُبكِّرًا مَغْمُومًا ضَيِّقَ الصَّدرِ، فَلَم تجرُؤْ علَى سُؤالِه، ولَم يجْرُؤ علَى سُؤالِها.

واكتَفَتْ بقَولِها:

– ذَهبتُ لأرىَ دَارَ الحَاج فوجَدتُهم سَافَرُوا لقَضاءِ العيدِ مَعَ أُمِّه.

ودَفعَتْ ربيعةُ البَابَ ليدْخُلَ زَوجُها، ودَخَلَتْ خَلْفَه، لتُفَاجأ بمَنْظرٍ عَجيب. كَانَ ضَابطُ الشُّرطةِ الشَّابُّ يمْسِكُ بطفلتِها مَريمَ ويُركِبهُا فوقَ كَبشٍ سَمينٍ أبيض الوَجْهِ، وهَي

تُمْسِك بصُوفِه سَعيدةً وتَضْحَكُ.

وَوقَفَتْ فَاغِرةً فمَها أمامَ المَشْهد! فالْتفَتَ الضَّابطُ إِليها وقَالَ:

ـ هَذَا خَرُوفُ مَرْيَمَ. فَهي التي سَهَّلَت لَنا عَمليَّةَ القَبضِ عَلَى اللِّصِّ.

ورفَعها من خِصْرِها وسَلَّمها لوَالِدَتِها، قَائلاً:

ـ هَذه فتَاةٌ سَعيدةُ الطَّالِعِ!

وامتلأت أعْيُنُ رَبيعةَ ومُبارَكٍ بالدُّموعِ، وهُما يُحَاولان شُكْرَ الضَّابطِ الشَّابِّ الذي أَحَسَّ هُو الآخرُ، بعَينيهِ تَغْرَوْرِقَانِ تأثُّرًا لسَعادةِ العَائلةِ الفَقيرةِ. فَأشَارَ إِلَى مُساعديه ليتْبَعُوه، وخَرجَ الجَميعُ تَاركين وَرَاءَهْمُ منزلاً تُرفْرِفُ علَيه السَّعادَةُ...



كنز بروكسيل

بقلم

أحمد عبد السلام البقالي

حينَ علمَ "عــبــدُ البــاقي الرُّباعيُّ" بعــودةِ رفــيقِ دربِه، "عبدِاللهِ الغنيميِّ"، من مهجره ببلجيكا، بحثَ عنه عنوةً وفي ذهنه خطةٌ.

علمَ بوجودهِ في المدينةِ قبل أن يسمعَ به أو يراه. حَدَسَه، شَمَّهُ كما يَشُمُّ الذئبُ فريستَه قبل أن يراها! فلبس أحسنَ ما عندَه وحلقَ ذقنَه وتعطَّر ومَشَطَ شَعْرَهُ الأشقرَ الذي كان يتَعَمَّدُ تَرْكَهُ قصيراً حتى لا يزيد في حجم رأسه الكبير!

وصنعَ مُصادفَةَ لقائِه صنعًا دقيقًا يتناسبُ فيه الزمانُ والمكانُ. علمَ أنه جلسَ في مقهى «الزَّريرَق» قربَ بابِ البحرِ، فرتَّبَ مرورَه من هناكَ قُبيْلَ أذانِ العشاءِ بقليلٍ.

ورتَّبَ كذلك أن يراهُ "عبدُ الله الغنيمي" قبلَ أن يراه هو، فكانَ له ما أرادَ. رآه الرجلُ فترك جماعتَه تحتَ عريشِ المقهى المعتمِ وقامَ مسرعًا لاعتراضِ طريقِه.

– أخي عبدَ الباقي!

ونظر إليه الرباعي، وكأنَّه لم يُمَيِّزْهُ في عتمةِ المساءِ، ثم تظاهرَ بالتعرفِ عليه.

- عبدُالله!

وتعانقَ الرجلان بحرارةٍ، وتبادلا التحياتِ وعباراتِ الشوقِ والعِتَابِ عن عدمِ المراسلةِ، وتكلما معًا دونَ أن ينصتَ أحدُهما للآخر. وسأله "الغنيميُّ" !

- إلى أينَ؟

- كنتُ ذاهبًا لقضاءِ غرضٍ. ولكنْ بعدَ أن لقيتُك قُضِيَتْ جميعُ أغراضي! وماذا تفعلُ أنت؟

وقبلَ أن يجيبَ أمسكَ الرباعيُّ بيده، وقال:

- ودِّعِ الجماعةَ، وتعالَ معي نَتَعَشَّ في مطعم صغير على الشاطئ. أنا في أشدِّ الشوق إليك!

وانْتَبَذَ الاثنان ركنًا قصيًّا من حديقةِ مطعم «الإِسْپادون» المطلةِ على مرفإِ «أصيلة» الصغير بمراكبه تتمايل تحت ضوء القمر الناعمِ على أنغام انكسارِ الموج الهادئ المتدارِك.

قال عبدالباقي الرُّبَاعي لجليسه:

- لا تَظُنَّ أنني نسيتُك يومًا واحداً أثناءَ هذه العشرين سنةً كلِّها، فقدْ كنتُ دائمًا أسألُ عنكَ جميعَ أفرادِ عائلتِكَ،

فيخبرونني عنكَ بما يثلجُ صدري من نجاح. خصوصًا حينَ فتحتَ مطعمًا ودكانًا لبيع الملابسِ الجاهزةِ، أليس كذلك؟

ووافقَهُ عبدالله الغنيميُّ، فأضافَ:

- أنا الآخرُ لم أكنْ جالسًا ويدايَ في حجري. فقدْ باشرتُ عدَّة أعمالٍ لم أشعرْ فيها بالارتياحِ وباستغلالِ مواهبي، حتى فتحتُ وكالةً عقاريَّةً ففتحَ اللهَ. وَلإِلْمَامي بعدَّة لغاتٍ أجنبيَّة، استطعتُ أن أَرِثَ جميعَ ملفاتِ الوكالةِ الأجنبيةِ وأحتكرَ سوقَ الخارجِ.

وانحنى في اتجاهه فاتحًا عينيه الزرقاوين في مرحٍ صبياني، كما اعتادَ أن يفعلَ معه أيامَ صباهُ حينَ يريدُ أن يؤكدَ شيئًا ما:

- وليسَ بيننا أسرارٌ، فقدْ جمعت، والحمدُلله، ثروةً تُغْنيني بقيةَ حياتي عن العمل. ورغمَ ذلك فلن أتقاعدَ!

وانشرحَ وجهُ (الغنيمي) الغليظِ التقاسيمِ بحاجبيهِ الكثيفينِ وشفتين السميكتين وجبينه الثقيل المخطوط الذي يدلُّ على تفكيرٍ بطيء، وقال:

- براڤو!

فضربَ (الرباعيُّ) على يد جليسه في مرحه القديمِ، وكررَ الكلماتِ التي كانا قد نسياها: «اللهْ يرحمْ الدِّين دْـيمَّاك!»

وضحكَ الرجلان.

ووقفَ عليهما النادلُ، فسألَ الرباعيُّ جليسَه:

- هل تأخذُ كوكتيلاً قبل العَشاء؟

- آسف، أنا لا أشرب. ولكن لا تَتَقَيَّدْ بِي.

وبلع الرباعيُّ ريقَه بصعوبةٍ. هذا أولُ ثقبٍ في خطتِه. لم يكنْ مستعداً له. وفكر بسرعة:

- لا داعي للاعـتـذار. أنا الآخـرُ لا أشـربُ إلا من أجلِ الزبائنِ الأجانب. هل تشربُ شيئًا آخر؟ عصيرًا مثلا؟

وطلب الغنيـميُّ كـوكـا، فـحـمـدَ الرباعيُّ اللهَ في سِّـره، وطلبَ كوكا هو الآخرُ، وطلبا ما يأكلان.

وحين كتبَ النادلُ الطلبَ وذهبَ، لحقَ به الرباعيُّ متظاهرًا بأنه نَسِيَ شيئًا، فاستوقفَه خلفَ زربِ القصبِ، ووضعَ في يدهِ ورقةً ماليَّة، وقال له:

- ضع قليلاً من الخَمْـرَةِ في كـأس صـاحبي، وسأدفعُ لكَ

حسابَه فيما بعد. أريدُه أن يتسلّى قليلاً، فقدْ فَقَدَ عزيزاً عليه ويرفضُ أن يشربَ.

وانتشى الغنيميُّ من أولِ شُرْبَةٍ منَ الشرَابِ الخبيثِ. وأخذَ يتحدثُ عن أمجادِه ومغامراتِه التجاريةِ في أوروبا بصراحةٍ كبيرة، ودون تحفُّظٍ، حتى صرَّح في غمرةِ نشوتهِ، بأنه يحتفظُ في صندوقهِ الحديديِّ في قَبْوِ دارِه بضاحيةِ "بروكسيل" بمائة مليونٍ نقداً، احتياطيًّا فقط، زيادةً على ما في البنوكِ، والمشاريعِ الأخرى!

قالها، وقد تدلّى لسانُه وتقاطرَ عرقُه، وأضافَ مفتخراً:

– مَنْ مِنْ أهلِ هذه المدينةِ يستطيعُ أن يقولَ هذا عن صدق؟! أَتَحَدّاهُمْ جميعًا!

فقال الرباعيُّ بسؤال ملغوم:

– ألا تعتقد أنهَ مبلغٌ كبيرٌ، وقد يُسْرَقُ منك في غيابك؟

فَأَلْغَى الغنيميُّ مخاوفه:

– أبدًا! الخزنةُ لا يمكنُ أن يعثرَ عليها حتى الشيطانُ

نفسُه! فهي في غرفةِ الفحمِ تحتَ الأرض. وحتى لو عثروا عليها، فلن يستطيعوا أخذَها لأنها غائصةٌ في الإسمنت المسلَّح! ولا تفتحُها حتى القنبلةُ الذَّرِّيَّةُ، لأنَّ رقمها السِّرِّيَّ عندي أنا وحدي. وليس هنا (وأشار إلى حقيبته الجلدية) بل هنا. (وأشار إلى رأسه).

فجادل الرُّبَاعي:

– أعرف زميلاً في التجارة (بطنجة) أقفلَ الخزنةَ على رقْمِهَا ونسيَه، وفيها أزيد من ثلاثينَ مليونًا، لم يستطعِ الوصولَ إليها حتى الآن!

فردَّ الغنيميُّ مستهجنًا:

– هذا رجلٌ بليدٌ ومغفَّل، بل وحمارٌ كذلك! الرقمُ لا بد أن يكونَ عندك معروفًا، ومحفوظًا لا يمكنُ نسيانُه، مثلَ تاريخِ ميلادكَ، أو ميلادِ زوجتَك، أو ابنكَ البكر، أو تاريخِ زواجِك.

وأخذ الرُّبَاعي الذي لم يكنْ شربَ قطرةَ كُحولٍ مذكرةً ذهنيَّةً بذلك. وانتقلَ الحديثُ إلى أيامِ الصِّبا وذكرياتِها الجميلةِ، فقال الغنيميُّ متذكرًا:

- أتذكر، يا عبدالباقي، كيفَ كنتَ أشطرَ منا جميعًا؟ كنتَ تتركُ الواحدَ منا يتعبُ حتى يحْصُلَ على شيء طالما تمنَّاه، فتخطَفَه أنتَ منه بدون تعب؟

وضحك (الرباعيُّ)، وفتحَ عينيه إلى آخرهما:

- براڤوا! ما تزال تذكر!

- مثل السمك مثلا. أتَذْكُرُ كيفَ كنا نحنُ نظلُّ نصطادُ ونتعبُ في حَفْرِ "الدويدة" للطعم، وقلعِ القصبِ، وشراءِ الخيوطِ والصنانير وتركيبِها، والوقوفِ ساعاتٍ وسط الأمواجِ وعلى الصخورِ. حتى إذا اصطدنا شيئًا في آخرِ النهارِ وقليناهُ أو شويناهُ لنأكلَه، تأتي أنتَ وتخطفُه من أيدينا، وتجري وأنتَ تأكلهُ! وحينَ نمسكَ بكَ ترمي لنا الطبق فارغًا!

وضحكَ الاثنان، فقالَ الغنيميُّ وهو يضحكُ بعينينِ ناعستين، وصوتٍ غليظٍ كصوتِ كَسَّارة الحجر:

- كنتَ الغَدْرَ مُجَسَّمًا!

وانزعج الرُّبَاعي، وخشيَ أن ينتهيَ خطُّ الذكرياتِ هذا إلى نَكْءِ جُرْحٍ قديمٍ، فضحكَ هو الآخرُ، وقال محاولاً إقفالَ الموضوع:

- كان ذلك أيامَ زمان! وقد انكسرتْ على رؤوسِنا كثيرٌ من القدور!

فأَصَرَّ الغنيميُّ على مواصلةِ حديثِ الذكريات:

- وإنْ أَنْسَ فلا أنسى اليوم الذي حَرَّضْتَنِي فيه على سرقة موزة من دكان "الراسيرو". فقطفْتُها من العنقودِ وهربتُ. ورآني صاحبُ المحلِّ فَتَبِعَنِي صائحًا: «لص! لص!» وتبعني نصفُ رواد السوقِ. وبجهدٍ جهيد استطعتُ الإفلاتَ منهم. وحين اختليتُ بها في المقبرةِ وقشَّرْتها وهممتُ بِعَضٍّ رأسها، خطفتها أنتَ منِّي وأدخلتَها في فمك كلِّها، وهربتَ!

وضحكَ الرباعيُّ نفاقًا لجليسهِ، وضربَ على كفِّه:

- يا إلهي! ما تزالُ تذكرُ كلَّ ذلك بالتفصيلِ! هذا دليلٌ على عمقِ روابطِ الصداقةِ التي تجمعُنا!

وأنقذهُ الغنيميُّ من حرجِه الداخلي بقوله:

- هذه سُنَّةُ الحياةِ! هناكَ أناسٌ يتعبونَ على اللقمةِ، وآخرونَ يأكلونَها باردةً! حتى في مملكةِ الحيوانِ، يصيدُها الذئبُ ويأكلُها الأسدُ! والمثلُ الشعبيُّ يقول: «عُنْق الحمالة

حـمـالة، وعـنقُ الـشـريطِ شـريط! » وحينَ كنا صـغـاراً كنا نمثل الطرفين!

فقاطع الرباعي:

ـ أمـا الآن، فـقـد أصـبـحْنا نمثلُ طرفًـا واحـدًا، وهو "عنقَ الحمالةِ والحمالةِ الذهبية" والحمد لله!

واغتنمَ الرُّبَّاعي قيامَ الغنيمي لقضاءِ حاجةٍ داخلَ المطعم، فأخذَ عنقود مفاتيحِهِ، وأخرجَ من حقيبةِ يدِه كتلة معجونٍ، وأخذَ يطبعُ عليها المفاتيحَ واحداً بعد آخر، من الجانبين، وهو ينظرُ إلى بابِ المقهى بعينيه الثعلبتين.

وحين انتهى، تناول محفَظةَ الغنيمي، وأخرجَ منها جوازَ سفره، وقرأ تاريخَ ميلاده، وأعادَه بسرعةٍ إلى مكانِه.

* * *

وفي صبـاحِ اليومِ التالي ذهبَ الرباعيُّ إلى صانعِ مفاتيحٍ صـديقٍ له في (طنجـة)، وأعطاهُ القـوالبَ، وذهب إلى وكـالةِ أسفارٍ، واشترى تذكرة إلى بروكسيل.

وفي مطارِ (بروكسـيل) أعطى سـائق التـاكـسي عنوان الغنيمي فوصل هذا إليه بسهولة.

ولم يزعجْه وجودُ نور داخلَ الدار. كانَ يعرفُ أنها خاليةٌ، وأن هناكَ آلاتٍ أمنيَّةً تُشْعِلُ النورَ آليًّا في أوقاتٍ معيَّنةٍ لِتُوهِمَ اللصوصَ بأن الدارَ عامرة!

وجرَّبَ المفاتيحَ حتى فتحَ له أحدُها، فدخلَ وأقفلَ الباب خلفه.

وعلى يساره مباشرة وجد بابًا مقفلاً ففتحه فإذا به سلم يُؤدِّي إلى القبو. أشعل النورَ، ونزلَ إلى نهايته. وهناكَ وجد بابًا آخرَ ففتحه ودخلَ فإذا رُكامٌ من براميل البلاستيك الفارغة، وبعضِ الفحمِ في ركنِ الغرفةِ المظلمةِ.

وأشعلَ النور وأخذَ يبحث في الأرضِ، فإذا خشبةٌ بها خرصةٌ من حديد أمسكَ بها ورفعَها، فظهرتْ له الخزنةُ الحديديةُ الخضراءُ تلمعُ حلقةُ أرقامِها في وجههِ، وهي غَارقَةٌ في الإسمنتِ المسلحِ، تمامًا كما قالَ له رفيقُ صباه البليد عبدالله الغنيمي!

وخفقَ قلبُه بشدّة، فركعَ على الأرض ونفخَ على أُصبعيهِ، استدرارًا للحظِّ، وأخذَ يُديرُ الحلقةَ ابتداءَ من يوم الميلادِ،

وانتهاءً بالسنة، ثم أدار المقبض فإذا بالخزنةِ المتمنعة تنفتحُ في وجههِ وتستَسْلِمُ له كالعاشقةِ الحسناء!

ودقَّ قلبُه بعنفٍ، وهو يرى بداخلِها رِزَمَ آلاف الفرنكات، مربوطةً بخيوطِ المطاطِ بعنايةٍ. فأدخلَ يدَه وأخرجَ الرِزْمةَ الأولى فملأت يده. وكانت تحتوي على عشرِ رِزَمٍ في كلِّ واحدةٍ منها عشرةُ آلاف فرنك.

وأخرجَ الثانيةَ والثالثةَ فخدشَ رُسْغَه رأسٌ حادٌّ خدشةً خفيفة لم يهتم لها. وظلَّ يُخْرِجُ الرِّزَمَ السحرية العجيبة، وقلبهُ يخفُقُ بعنف حتى يكاد يهزُّ صدْرَه!

وحين أفرغ الخزنةَ، جلس يُسَتِّفُ الرِزَمَ في حقيبة الألومنيوم الخفيفةِ فنزلَتْ فيها كأنها خُلقتْ لها.

وأقفلَ الخزنةَ، ومسحَ حَلْقَتَها من أَثَرِ بَصْماته بمنديلٍ، وحملَ كنزَه الثمينَ وصعدَ السلَّمَ. وما كاد يتوسَّطُه حتى أحسَ بدوارٍ مفاجئ، وبخَدَرٍ خفيفٍ يسري من يده اليمنى إلى ذراعه. ولم يكد يصل إلى أعلى السلم حتى هبط الدمُ من دماغِه، وأحسَّ بالدنيا تظلمُ في عينيه، وبفراغٍ في ركبتيه.

وسقطتِ الحقيبةُ من يده إلى أسفلِ السلمِ. فأيقن أنه التسمُّم، وأسرعَ فأخرجَ منديله من جيبهِ بيده اليسرى بجهد جهيد، وهو يرتعشُ، وقد نشَّهُ عرقٌ بارد، وربطَه حول ساعدِه، وعقدَ عقدةً أخرى، ثم تَحَامَلَ على نفسِه وذهبَ إلى المطبخِ فأمسكَ بملعقةٍ كبيرةٍ أدخلها بين العقدتين، وأخذ يلوي، والربطةُ تضغطُ على ساعدِه ليمنعَ السُّمَّ من الانتشارِ وهو متجهٌ نحو البابِ.

وتوجَّه نحو أقربِ دارٍ وضغطَ جرسَها، فخرجت امرأةٌ شابةٌ فبادرها:

- أرجوك يا آنسة، أعتقد أنني مصاب بتسمُّم. وأرجوك أن تنادي سيارةَ إسعافٍ. وخرجَ زوجُها، فأدخلاه وناديا الإسعافَ. وبعد لحظة أُغْمِيَ عليه.

* * *

وحين أفاق وجد نفسه على سرير بجناح المستعجلات بإحدى المستشفيات. ونادت ممرضتُه الطبيبَ الرئيسَ، فتلطف به وسألَه عن حاله، فلما اطمأنَّ إلى وعيه، أخبره بالخبر المريع:

- أرجو ألاَّ يزعجك ما سأقوله لك؛ فقد وجدنا أنفسنا، أمامَ حالتِك المستعجلةِ، بين خيارين أَهْوَنُهُمَا صعب! كان علينا إما أن نقطعَ يدك، أو نتُركَكَ تموت. وقد اخترنا الحفاظ على حياتِك، طبعًا.

وحينئذٍ فقط انتبهَ الرباعيُّ إلى الضِّماداتِ الملفوفةِ على ساعدهِ اليمنى، فاغرورقتْ عيناه ألمًا وحسرةً وغضبًا.

وكانَ أولُ سؤالٍ ألقاه على الطبيب هو:

- متى يمكنني أن أخرج؟

- بمجرَّدِ ما تأذن لنا الشرطةُ بتسريحكَ فقد بعثْنا إِلَيْها بتقريرٍ عن حالتك، وهم يريدونَ معرفةَ سببِ هذا التسمُّم.

وأُصيبَ الرباعيُّ بذُعْرِ حينَ سمعَ اسمَ الشرطةِ والتحقيقِ. ولكنه كعادتهِ استطاعَ السيطرةَ على أعصابهِ وملامحِه، وإخفاءَ علاماتِ الرُّعبِ.

وانتظرَ انتهاءَ زيارةِ الطبيبِ، وخُلُوَّ الغرفةَ، فارتدى ملابسهَ، وتسلّلَ خارجًا دونَ أن يعترضَ طريقَه أحدٌ.

وأخذَ سيارةَ أجرة إلِى منزل الغنيميِّ وكانتْ عتمةُ المساءِ

قد ملأت الشارعَ الخالي فلم يلاحظْه أحدٌ يدخلُ البيت.

وقصد القَبْوَ فَوْرَ دُخُوله، وأشعلَ النور، وهو يتوقعَ أن يرى الحقيبةَ في أسفل السلمِ، ولكنه لم يجد شيئًا.

ودفعَ بابَ الغرفةِ، وأشعلَ النورَ، وأخذَ يبحثُ بجنونٍ، فسمعَ صوتًا يناديه من أعلى السلم فقفزَ رعبًا!

وبعد لَحْظَةِ فزعٍ، تبيَّنَ أن الصوت صوتُ رفيقِ صباه الغليظ عبد الباقي الغنيمي يخاطبه بهدوء:

ـ لا بدَّ أنكَ تبحثُ عن حقيبةِ الفلوس! لا تُتْعِبْ نفسَكَ؛ فقد أطلعتها إلى فوق، وهي تنتظرُكَ في الصالون. لم أُرِدْ تركَها هناك مبعثرةً على السلَّم، فأنتَ تعرفُ أن اللصوصَ والغَدَّارين وأولاد الحرام كثيرون هذه الأيامَ، خصوصًا الغدَّارين الذينَ لا تنفعُ معهم عِشْرَةٌ ولا صداقة!

ونظرَ إلى يدهِ المقطوعةِ، وأظهرَ المفاجأة:

ـ ماذا حدث ليدك؟

وهنا خرجَ مرزوقٌ الرباعيُّ من ذهولهِ، وقال:

ـ أنتَ عارفٌ! لا تحاولْ أن تتجاهلَ!

وأشارَ إليه الغنيميُّ ليتبعه إلى الصالون:

- تعالَ نقعدْ، فلا بُدّ أنك ما تزالَ متأثرًا بالعملية.

وتبعه الرباعيُّ إلى غرفةِ الجلوس، فوقعتْ عينُه على حقيبةِ الألومنيومِ اللماعِ مفتوحةً والكنزُ ما يزالُ بداخلِها، لم تَنقصْ منه رِزْمةٌ. وقال الغنيميُّ وهو ينظرُ إلى يدِ الرباعيِّ المقْطوعةِ:

- قطعوا يدكَ إذن!

وحركَ رأسَه نادمًا لائمًا نفسه على إهماله:

- أنا آسفٌ لما حدثَ لك! كان ينبغي أن أذكُرَ لك، حين كنت "أُطْعِمُكَ" المعلوماتِ عن كنزي هذا وكيف تصلُ إليه، أنَّ الكنْزَ محروسٌ بحُقَنٍ مسمومةٍ مغروسةٍ في أرضيةِ الخزنةِ في نفسِ نوعِ المعجونِ الذي طبعتَ عليه المفاتيح. حتى تأخذَ حيطتَك. ولكنني للأسف، نسيتُ هذه الجزئيةِ الصغيرة.

ولأول مرة لم يلعبِ الرباعيُّ بتقاسيم وجهه كعادته حينَ يكون مسيطراً على الموقفِ، ويريدُ أن يُدْهِشَ ضَحيتَه. لم يزدْ على أن قالَ:

- هذا ليسَ من تدبيرِك أنت! لا بدَّ أن أحداً أوحى به إليك!

فضحكَ الغنيميُّ ضحكتَه الغليظة حتى اهتزتْ بطنُه، وقال:

- سأعتبرُ هذا منكَ ثناء!

وحركَ رأسه خائبًا:

- أنتم كبارَ الرؤوسِ، أصحابَ الذكاء العالي، ترتكبون بتسرُّعِكُم أخطاءَ قاتلةً مثل سيارات السباق! فأنتَ لا تميز بينَ «البلادة» و«الغفلة». البليدُ له مُخٌّ مصفَّح لا أملَ في فهمه لأيِّ شيء، مهما يَطُلِ الزمن. أما المغفلُ فهو إنسانٌ ذكيٌّ، ولكنه بطيء الفهم، اعْطِهِ وقتًا كافيًا يفهمِ الأشياءَ المعقدةَ تمامًا كما يفهمها الذكيُّ! وأنا أعترفُ بأنني كنتُ مغفلاً، ولكني لم أكن أبدًا بليدًا...

ورمشَ الرباعيُّ كما يفعلُ حينَ يستعصي عليه فهمُ موقفٍ ما، وقال:

- لا، لا، لا... هذا كلامٌ أكبرُ منكَ! من أينَ جئتَ به؟

- هذه بعضُ فضائل العيش في أوروبا. التلفزيون هنا يفتحُ عيونَ البسطاء مثلي على أشياءَ كثيرةٍ. وتعلمتُ كذلكَ شيئًا آخرَ من التلفزيون.

وتَوقفَ، وكأنما تذكرَ شيئًا مهمًا:

– أنا آسف! لم أسألْكَ ماذا تريدُ أن تشربَ. فأنت ضيفي.

ووقفَ، وذهبَ إلى خزانهٍ من الآبنوس اللمَّاع، وفتحَ مِصْراعيها فظهرتْ كؤوسُ البِلَّوْر، وزجاجاتِ المشروبات بجميعِ أنواعها. ونظرَ إلى الرباعيِّ مُشجِّعًا، فحرك هذا رأسه رافضًا، وخائفًا من خُدْعةٍ ما. فملأ الغنيميُّ لنفسه كوب طونيك، وجرعَ منه بدون صوتٍ خلافًا لما كان يفعلُ في شبابه، والرباعيُّ مُعَلَّقٌ ينتظرُ جوابَ الغنيميِّ على السؤال الذي طرحه. ولم يعدْ إلى الجلوسِ، بل استأنفَ الكلام من وقفته:

– كنتُ أقول إنني تعلمتُ أشياءَ كثيرةً من التلفزيون هنا، ومنها الشربُ بدون صَوْت! وشيءٍ آخرَ هو القدرةُ على إخفاءِ مشاعري الحقيقيةِ والتمويهِ على الكَذَّابِ وإيهامهِ بأنني أصدِّقه! كما حدثَ لي معك، مثلاً، بالأمسِ، وأنت تفتخرُ و«تَفْشَرُ» عليَّ بالثروةِ الطائلةِ التي جمعتَها من عملِك في

تجارةِ العقار. تظاهرتُ بتصديقِك، وأنا أعرفُ أنكَ كاذبٌ! فأنتَ لا تملكُ شيئًا. وتعيشُ في غرفةٍ قذرةٍ مع الجيرانِ، ولا تدفعُ حتى الكراءَ. وأعرفُ أنكَ دخلتَ السجنَ بتهمةِ التزويرِ والتدليسِ على أجنبيٍّ. وأنكَ خَسِرتَ مصداقيتَك في كلِّ سوقٍ، وصرتَ يشارُ إليكَ بالبنانِ في ميدانِ الغشِّ والفسادِ والنصبِ والاحتيال!

وانحنى من موقفِه، والكأسُ في يمناه، ويدُه اليُسْرى في جيبه سائلاً:

- فَمَنْ منَّا الأذكى الآن؟

وابتسمَ الرباعيُّ، ووسَّع عينيه الزرقاوين وزمَّ شفتيه، كما يفعلُ حين يكونُ سيدَ الموقف:

- لا تفرحْ كثيراً بذكائِك التِّلفزيوني المكتسَب! ماذا لو رفعتُ دعوى ضدَّك بالتسبُّبِ العمدي في قطعِ يدي؟!

وبان الجدُّ على وجه الغنيمي، وجحظتْ عيناهُ فجأةً من الخوفِ، وأخذت شفتاهُ ترتعشان، واندلقَ بعضُ السائلِ من كأسِه فوضعَها على الطاولةِ، وهو ينظرُ إلى وجهِ الرباعيِّ الذي علتْه ابتسامةُ انتصار!

- وماذا ستقولُ للمحكمة؟

- سأعترفُ بكل شيء، وأتحمَّلُ العقوبةَ التي لن تزيدَ على بضعةِ أسابيعَ سجنًا. (وضحكَ معلقًا) وسجونُ بلجيكا أحسنُ من غرفتي بطنجة! ثم أطالبُك بكلِّ ما تملكُ ثمنًا ليدي!

ونظرَ في عينيه بحدَّة وتشفٍّي وكأنه وضع سكينًا على رقبته!

وانهارَ الغنيمي فجأةً كما لو حُكِمَ عليه بالإعدامِ وقال مُتَوسِّلاً:

- أرجوكَ يا أخي عبدَ الباقي، أرجوكَ! كلُّ شيء إلا المحكمةَ! أنا أعطيكَ كلَّ ما تطلبُه، ولا ترفعْ عليَّ دعوى! بحقٍّ الطعامِ والصداقةِ وطولِ العشرة!

وسقطَ على ركبتيْهِ، وزحفَ نحو الرباعيِّ، وأمسكَ بيده يريدُ تقبيلَها، فانتزعَها الرباعيُّ منه باحتقارٍ شديدٍ، وقامَ من مكانه، وابتَعدَ عنه، فدفنَ الغنيميُّ وجهَهُ في وسادةِ الكرسي، وأخذ ينتحبُ ويتوسلُ بصوتٍ عالٍ، وجسدُه كلُّه يهتزُّ كجبلٍ من لحمٍ تتفجَّرُ بداخلِه ألْغامٌ!

ووقفَ الرباعيُّ ينظرُ إليه بنشوةِ الصيادِ الذي أَرْدَى خنزيراً بَرِّيًا ضخمًا، ووضع قَدَمَه فوق رأسهِ لأخذِ صورةٍ تذكاريَّة! وأخيراً قال:

– أساسًا، الناس لا يتغيرون. الذكيُّ يبقى ذكيًا، والبليدُ يبقى بليداً مهما يتنقَّلْ بينَ البلدان، ويكتسبْ من تجارب! الذكاءُ المكتسبُ لن يتفوَّقَ أبداً على الذكاءِ الفطريِّ! وأنت وُلدتَ بليداً وستموت بليداً!

واقتربَ من حيثُ كان الغنيميُّ يدفنُ رأسَه في كفيه، وينتحبُ بحرقةٍ، وقال مُتأَنِّقًا وهو ينحني عليه ليسمَعَه:

– أنا، أيضًا، تعلمتُ شيئًا من التلفزيون عن القانونِ البلجيكي! هل تذكرُ تلكَ القصةَ؟ قصةَ الجماعةِ التي نصبتْ في سيارتِها مصائدَ وفخاخَ صيدِ خنازيرٍ لِلُصوص راديوهات السيارات؟ في النهايةِ انقلبتِ الآيةُ، وأصبح أصحابُ السيارات مذنبين، واللصوصُ أبرياءَ! لأنَّ يدَ لصٍّ انكسرتْ حينَ انطبقَ عليها الفخُّ!

وشَهِقَ الغنيميُّ شهقةً عاليةً، وشخرَ شخْرةً خنزير، وأخذَ

جسدُه يرتجفُ بسرعةٍ ويهتزّ، ورَفعَ رأسَه فإذا هو يقهْقهُ بشدةٍ وكأنهُ سِمعَ نكتةً رائعة!

وفوجئ عبد الباقي الرباعيَّ بالتحول المفاجئ في موقف الرجل، فظنه جُنَّ! لم يكنْ يتوقعُ أن ينهارَ لسماع كلمةِ المحكمةِ بهذه السهولة، وحينَ فعلَ، أدركَ الرباعيُّ أن له سابقةَ تسميمٍ خطيرةً استطاع الإفلاتَ منها، وأنه يخشى أن تؤكِّدَها التهمةُ الجديدةُ، فيحاسَبُ على الجريمتين!

ونظرَ حواليه باحثًا عن شيء يدافعُ به عن نفسه في حالةِ هجومِ الغنيميِّ عليه، ولكنَّ الغنيميَّ حرَّكَ رأْسَهُ ووقفَ يمسحُ عينيه:

- مسكين عمِّي عبد الباقي! مرةً أخرى يخونُك ذكاؤك الطبيعيُّ! كيفَ وجدت تمثيلي!؟ وبالمناسبةِ، أنا كذلكَ رأيتُ ذلك الفيلم. وأخذتُه في الحسابِ، وأطلعتُ محاميَّ الخاصَّ على الخطةِ قبل تنفيذِها فوافقَ عليها. أصحابُ السياراتِ اعترفوا بعملهم للمحكمة. وتركوا شواهدَ الإثباتِ في السيارات! أنا أنكرُ كل شيء. ولا شاهدَ إثباتٍ في خزينتي.

وسأدافعُ بأنكَ سَرَقْت كلَّ توفيري وأطالبُك به...

وحرَّك رأسَه:

– ثم هناكَ المحكمةُ. ومصاريفُ المحامين، ومصاريفُ الإقَامةِ هنا، وكلُّها باهظةٌ لا طاقةَ لصغارِ الخَطّافين مثلك بها!

وبُهِتَ الرباعي، وَخَبا بريقُ عينه الذكيتين، وهو ينظرُ إلى رفيقِ صباه الغليظِ البليدِ يتحوَّلُ أمامَه بسرعةٍ إلى شخصيَّةٍ ذكيَّةٍ داهية. وقال:

– إذنْ، كانَ هذا كلُّه من تدبيرك!

فحركَ الغنيميُّ رأسَهُ الكبيرَ موافقًا دون أن يبدو على ملامحِهِ الثقيلةِ انفعالٌ. فسأله الرباعيُّ غير فاهم:

– ولكنْ لماذا، بحق العِشْرة والطعام؟!

فأشارَ له الغنيميُّ بحركةٍ أنيقة إلى الكرسي:

– تفضلْ، اجلس.

وجلس مقابلاً له:

– سأقولُ لك لماذا. كلُّ ما فعلتَه بي، ونحنُ صغارٌ، من احتقارٍ لذكائي واستغلالٍ لبساطتي وطيبتي وإهانةٍ لي

وتعييري أمام الجميع بوزني وشكلي، لم يتركْ أثرًا كبيرًا في نفسي. فقد كنتَ صديقي، وألِفْتُ ذلك منك. بل وألِفْتُ منك حتى الغدر، وصرتُ أعتقدُ أن جميعَ الناس غدَّارون!

وتنهَّد بعُمق، وقال:

– ولكنَّ الشيءَ الذي لم أنسهَ، ولن أنساه أبدًا، هو أخذُك «نعيمةً» منِّي! المخلوقَ الوحيدَ الذي كان على وشك قبولي كما أنا، ومُبَادلَتي العواطفَ. حتى ظهرتَ أنت، وخطفتَها منّي، كما تُخْطَفُ قطعة حلْوى! وليتَك تزوجتها. لكُنْتُ احترمْتُك وهنَّأتك... لا، أخذتها مني فقط لشهوةِ الغدرِ والخطفِ... واستعملتَها ثم أَلْقيتَ بها كمنديلِ الورق في سَلَّةِ المهملات! مَصَصْتَ حلاوتها كقطعة عِلْكٍ، وبصقْتَها في التراب!

وتَنَهَّد مرَّة أخرى وأضاف:

– ليتك كنْتَ قطعتَ يدي وتَركتها لي! ولكنك قَطَّعت قلبي! ومُنْذ ذلك قررتُ الانتقامَ منك، وإذاقَتَك نفسَ الشراب المُرِّ الذي طالما سقيتنيه. شرابَ الغدر والخيانة والإهانة! ولكن ليس بطريقتكَ، بل بطريقتي...

واعتدلَ في جلسته، وقال متفلسفًا:

ـ فُقْداني «نعيمةَ» لم يكنْ خسارةً كاملة. فقد جعلني غضبي وحزني أتركُ البلدَ وأهاجرُ إلى هنا، وأَدْفُن آلامي في العمل والكدّ. وأثْمَرَ اجتهادي ثروة طائلة...

وأشارَ إلى حقيبةِ الألومينوم الملآنةِ برزم الأوراقِ الماليةِ، وقال:

ـ فلا تقلقْ على المالِ! لن آخذه منك. أنتَ سرقتَ نعيمةَ مني. وقد عاقبَكَ اللهُ على ذلك بما يُعَاقَبُ به اللصوصُ، فقُطعتْ يدُك. وسوفَ أكونُ معكَ كريمًا. من أجلِ العِشْرةِ الطويلةِ. فأنتَ ضيفٌ في بيتي، ولنْ آخذَ منكَ هذه الفلوس. فقد كسبتَها بقطْعِ يدك، وسأتركُها لك لتركّب بها ذراعًا صناعيةً، فهي غاليةٌ جدًا!

ولم يصدق الرباعيُّ أذُنيْه ولا عينيه، وهو يرى الغنيميَّ يدفعُ له الحقيبةَ، فمدَّ يده اليسرى وحملَها إلى صدره، وعانقها، وغادر المنزلَ، وهو يلتفتُ وراءَه في طريقِه إلى محطةِ سياراتِ الأجرة.

وطلبَ من السائقِ أن يأخذَهِ إلى محطةِ القطارِ، وسرحَ خيالُه يرسمُ الخططَ الورديةَ لملايينه المائة . . .

سيضعُها في حسابٍ سرِّيٍّ في بنك «بسويسرة»، ويعيش عليها بقيةَ حياته، على فائدتِها وحدَها!

وعلى بابِ المحطةِ، فتح الحقيبةَ، واستَلَّ ورقةً من إحدى الرُّزَمِ، وناولَها السائقَ، وانتَظر الرَّدّ.

ونظرَ إليها السائقُ في ضوءِ السيارة وأرجعها إليه غاضبًا:

– ميسيو! هذه ورقة لعب!

وانقبضَ قلبُ الرباعي:

– ماذا؟!

– لابدَّ أن أحدًا لعب عليك!

فتناول الرباعيُّ الورقةَ، وقلَّبها بين يديه، والسائقُ ينتَظرُ، وأخرجَ محفظَتَه، ونقدَه أجرتَه، وتركَ السيارةَ وخرجَ. وفي القطارِ قصدَ مقصورةً فارغةً، وفتحَ الحقيبةَ، فإذا كلُّ رِزمةٍ عليها ورقتان من أوراقِ اللعب، وما بينهما قصاصات ورق جرائد . . .

نوفمبر ١٩٨٥م.

هذه السلسلة

تضم هذه السلسلة مجموعة مختارة من القصص والروايات التربوية التشويقية المختارة للكاتب المغربي المعروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جائزة «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخياله الخصب، وخطوته السريعة التي تنقل القارئ من مفاجأة إلى أخرى، ومن عالم إلى آخر، يقرب ا
الماضي البعيد، ويلقي الأضواء على عوالم
بالبراعة نفسها التي يتناول بها الحاضر
فالبقالي من أبرع كتاب القصة البوليسية الح
الحديثة للشباب في العالم العربي.





